

تَقْدِيمٌ

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، نبينا وحبينا محمد القائل: وإن من البيان لسحرا، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، واستن بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فيعُدُّ فضيلة العلامة الباحثة المحقق، الأستاذ الدكتور سيدي محمد ابن شريفة، حفظه الله، من رواد البحث المميّزين في مجال الدراسات الأدبية المغربية والأندلسية على المستوى العالمي؛ إذ أثرى المكتبة العربية طيلة خمسين عاما، بعبء لا ينضب من البحوث والدراسات الماتعة التي كشفت عن جوانب خفية من تاريخنا الأدبي الزاخر بالمعاني الجميلة، والقيم النبيلة، والأحداث الجسيمة، وكانت فاتحة أعماله، المؤذنة بظهور يانع ثماره؛ رسالته الجامعية التي أنجزها لنيل دبلوم الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس سنة 1964م، تحت إشراف الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي رحمته الله، عن حياة وأثار علم أندلسي، سطع نجمه في مجال الكتابة والشعر في العهد الموحد؛ ألا وهو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، ولم يسبق أن تناول أحد من الدارسين المعاصرين، شخصية أدبية بمثل المنهج الذي سلكه الأستاذ محمد بن شريفة؛ فهو لم يُعول على كتب التراجم والتاريخ في بناء سيرة المترجم، بل استخراج مادة غزيرة عن حياته وبيئته العلمية والأدبية، من خلال تصانيفه وآثاره، وترك ابن عميرة يتحدث عن نفسه، ويُدبِّج منظومه ومنشوره، واصفا تارة، ومادحا وهاجيا تارة أخرى، ولم يكن هذا المسلك سهلا مُوطّأ؛ إذ تطلب ذلك تحقيق وتحليل ودراسة أشعاره المتناثرة في مصادر ترجمته، واستقصاء رسائله التي جمعها أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي (ت733هـ)، بالإضافة إلى رصد سائر إنتاجه

العلمي والأدبي، في عدد كبير من الوثائق والمخطوطات، المتفرقة في المكتبات والخزائن العامة والخاصة.

وتميّز منهج الأستاذ الباحثة المحقق، الدكتور محمد ابن شريفة في تحرير بحثه، بوضوح العبارة، والدقة في التوثيق والمقارنة، والاستنتاج والنقد، مما جعل منهجه في تدوين سيرة ابن عميرة نموذجاً يُحتذى به، ويُنسج على منواله، ومن جميل الموافقات، أن تكون رسالته عن حياة ابن عميرة وآثاره، أوّل رسالة جامعية تُناقش بجامعة محمد الخامس بالرباط التي تولت بعد ذلك طبعتها سنة 1966م، بعد أن حظيت بإعجاب عدد من كبار الأساتذة بالعالم العربي، في طليعتهم الأستاذ محمد الفاسي، والدكتور إحسان عباس، والدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور محمود مكي، والأستاذ البشير الإبراهيمي، والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، والأستاذ نيقولا زيادة، وغيرهم.

لقد كشف الأستاذ محمد ابن شريفة عن فترة زاهية من تاريخ الأدب الأندلسي، بتدوينه سيرة هذا الأديب الأندلسي البارِع، الذي وُلد بمجزيرة شقر، وقيل: ببلنسية، في شهر رمضان سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة، ترجمه ابن عبد الملك المراكشي فقال: كان أوّل طلبه العلم، شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهلها، وتفنّن في العلوم، ونظر في العقليّات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع فيه براعة عدّها من كبار مجيدي النّظم، وأما الكتابة، فهو علمها المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمدّ الإحسان، وله المطوّلات المنتخبة، والقصار المقتضبة...

ووصفه صاحب كتاب المُعرب في حُلّ المغرب، بقوله: الكاتِب أبو المطرّف أحمد ابن عميرة؛ هو الآن عَظِيم الأندلس في الكِتابة وفي فنون من العُلوم.

وورد في مصادر ترجمته، أن ابن عميرة رأى في منامه النبي ﷺ، فناوله أقلاماً، وكان يَرى ويُرَى له، أن تأويل تلك الرؤيا ما أدرك من التبريز في الكتابة، وشيوع الذكر بها.

وبتقليب صفحات سيرته، نجد قد عاش -رَحِمَهُ اللهُ- حياة متقلبة، تقلد أثناءها أعمال القضاء والكتابة في دول مختلفة، وتنقل خلالها في كثير من بلدان الأندلس والمغرب وإفريقية، كان كاتباً للرشيد الموحي، ثم قاضياً له، وأيضاً لأخيه السعيد في مدن عديدة بالمغرب، ونال مكانة كبيرة آخر حياته لدى الخليفة المستنصر الحفصي، وشهد ابن عميرة ضياع معظم قواعد الأندلس من يد المسلمين، وعاصر انهيار دول وقيام أخرى.

وبحكم تقلده عدداً من الأعمال السامية، وقُربه من الأمراء والسلطين بالأندلس والمغرب وتونس، كان لابن عميرة أثر بارز في بعض الأحداث التي وقعت في عصره، وكانت وفاته -رَحِمَهُ اللهُ- بتونس، ليلة الجمعة الموفية عشرين من شهر ذي الحجة، ثمان وخمسين وستمئة.

وعندما نشر أستاذنا الدكتور محمد ابن شريفة كتابه عن سيرة ابن عميرة، قبل ما ينيف على الخمسين عاماً، كان شغوفاً -حفظه الله- بتحقيق رسائل ابن عميرة، وجمع ديوانه وسائر تصانيفه وأوضاعه؛ لكنه انشغل عن ذلك بالبحث في موضوعات أخرى كثيرة، تتصل بالتراث الأدبي بالمغرب والأندلس، إلى أن اشتد به الحنين للرجوع إلى مشروعه العلمي الأول؛ ليصدق عليه قول الشاعر أبي تمام:

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْخُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبْدَأُ الْأَوَّلِ مَنْزِلِ

عاد أستاذنا الجليل إلى تراث أبي المطرف، واتفق مع مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء على نشر أعماله كاملة، وقضى ما يزيد على أربع سنوات، متردداً على مقر الرابطة لا يشغل باله سوى لَمَمَاتِ أعمال هذا العلم الأندلسي الفدّ، حتى استوى العمل بإذن الله تعالى على سُوْقِهِ، فأتى في ثمانية أجزاء، احتوى الجزء الأول منها على سيرة ابن عميرة منقحة مهذبة، ثم تضمنت الأجزاء

الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، رسائل ابن عميرة، اشتمل الجزء الثاني على المداخل، تلتها في الجزء الثالث رسائل ابن عميرة التي كتبت بالأندلس، وفي الجزء الرابع رسائل التي كتبت في المغرب، وفي الجزء الخامس رسائل التي كتبت بإفريقية، أما الجزء السادس فهو خاص بديوان أشعاره، بينما اختص الجزء السابع بتحقيق كتابه التنبهات، واشتمل الجزء الثامن والأخير على تحقيق كتابه تاريخ كائنة ميورقة، مُدَيلاً بجمع ما تفرق من مجالسه الوعظية.

وإنه من الواجب في هذا التقديم الموجز، التنويه بالجهود الجبارة التي بذلها أستاذنا الدكتور محمد ابن شريفة -محاضرا وباحثا ومحققا- في الحفاظ على ذاكرة المغرب الحضارية، والتعريف بالنبوغ المغربي في عالم الثقافة والأدب؛ ولا سيما هذا العمل العلمي الرائد الذي أجاد فيه وأمتع وأفاد، وجمع فيه الأعمال الكاملة للقاضي العالم الكاتب الأديب أبي المطرف ابن عميرة المخزومي، فاللّه أسأل أن يبارك في عمره، وفي أعماله، وأن يجزي خيرا الأساتذة الباحثين بمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء، الذين أسهموا في ظهور هذا الكتاب، تحت الريادة والتوجيه الناجعين الحكيمين للأستاذ المحقق الباحثة الدكتور عبد اللطيف الجيلاني -حفظه الله- رئيس مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء، وكذا الذين شاركوا في أعمال الرقن والتصحيح والتوثيق والفهرسة، وأخصّ منهم بالذكر الدكتور طارق طاطمي، والدكتور نور الدين شوبد، والدكتور رشيد قباظ، والدكتور جمال القديم، والأستاذة نادية بومعيزة، كما أسأله سبحانه أن يجعل ثواب نشره في سجلّ حسنات راعي العلم والعلماء أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، نصره الله وأعزّ ملكه، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء